النظر أن مَن جعل فى هذه الأمور الموجودة فى الخارج شيئين - أحدهما : وجودها ، والثانى : ذواتها ، أو جعل لها حقيقة مطلقة موجودة زائدة على عينها الموجودة فقد غلط غلطاً قوياً ، واشتبه عليه ما يأخذه من العقل من المعانى المجرَّدة المطلقة عن التعيين ، ومن الماهيات المجرَّدة عن الوجود الخارجى بما هو موجود فى الخارج من ذلك ، ولم يدر أنَّ متصورات العقل ومقدَّراته أوسع مما هو موجود حاصل بذاته ، كما يتصور المعدومات والممتنعات والمشروطات ، وبقدر ما لا وجود له ألبتة مما يمكن أو لا يمكن ، ويأخذ من المعينات صفات مطلقة فيه . فإنَّ الموجودات ذوات متصورة فيه ، لكن هذا القول أشد جهلاً وكفراً باللّه تعالى ، فإنَّ صاحبه لا يفرِّق بين المظاهر والظاهر ، ولا يجعل الكثرة والتفرقة إلا فى ذهن الإنسان لما كان محجوباً عن شهود الحقيقة ، فلما انكشف غطاؤه عاين أنه لم يكن غير ، وأنَّ الرائى عين المرئى ، والشاهد عين المشهود .

* * *

فصل
فى أنَّ الحلول والاتحاد أربعة أقسام

واعلم أنَّ هذه المقالات لا أعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء على هذا الوجه ، ولكن رأيتُ فى بعض كتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو [1] أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله : إنَّ الوجود واحد ورد ذلك ، وحسبك بمذهب لا يرضاه متكلمة الصابئين .

---

(١) أرسطو : (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م) ، مربى الإسكندر الأكبر ، وتلميذ أفلاطون ، فيلسوف يونانى من كبار مفكرى البشرية ، تأثرت بوادر التفكير العربى بتآليفه التى نقلها إلى العربية النقلة السريان وأهمهم إسحاق بن حنين ، مؤسس مذهب « فلسفة المشّائين » . مؤلفاته فى المنطق والطبيعيات والإلهيات والأخلاق ، أهمها « المقولات » ، « الجدل » ، « الخطابة » ، « كتاب ما بعد الطبيعة » ، « السياسة » ، « النفس » (البلتاجى) .

وإنما حدثت هذه المقالات بحدوث دولة التتار ، وإنما كان الكفر الحلول العام أو الاتحاد أو الحلول الخاص . وذلك أنَّ القسمة رباعية لأنَّ مَن جعل الرب هو العبد حقيقة ، فإما أن يقول بحلوله فيه ، أو اتحاده به ، وعلى التقديرين : فإما أن يجعل ذلك مختصاً ببعض الخلق كالمسيح ، أو يجعله عاماً لجميع الخلق . فهذه أربعة أقسام :

الأول : هو الحلول الخاص - وهو قول النسطورية [١] من النصارى ونحوهم ممن يقول : إنَّ اللاهوت حَلَّ فى الناسوت وتدرع به كحلول الماء فى الإناء ، وهؤلاء حققوا كفر النصارى بسبب مخالطتهم للمسلمين ، وكان أولهم فى زمن المأمون . وهذا قول مَن وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة ، كغالية الرافضة [٢] الذين يقولون : إنه حُلَّ بعلىٍّ بن أبى طالب وأئمة أهل بيته ، وغالية النُسَّاك الذين يقولون بالحلول فى الأولياء ومَن يعتقدون فيه الولاية ، أو فى بعضهم كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء [٣] .

---

(١) للتعريف بالنسطورية انظر جـ ١هامش ص ٢١٩

(٢) للتعريف بالرافضة انظر جـ ١ هامش ص ٩١ ، ٢١٣

(٣) الحلاج : الحسين بن منصور، توفى سنة ٣٠٩ هـ ، ولد فى الطور قرب البيضاء (فارس) ، وتوفى فى بغداد ، فيلسوف صوفى ، قضى السنوات فى خلوات الصوفية لا سيما مع التسترى والجنيد ، ثم طاف البلدان واعياً إلى الزهد ، اتهم بالزندقة والقول بالحلول فحُكِم عليه وسُجِن ثمانى سنوات فى بغداد ، ثم عُذِّب وصُلِب بعد أن قُطِّعت أطرافه لادعائه الربوبية ، ولقوله بسقوط الفرائض واستبدالها بقربات وغيرها . ومما حدث فى أثناء محاكمته أن حُكِم على تلميذه أبى العباس أحمد بن عطاء بالموت كذلك لقوله بمقالته ، فضُرِب على رأسه بأمر القاضى حتى نزف الدم من أنفه وفمه فمات .

أنشأ الحلاج مذهباً فى التصوف وأثار حوله الجدل ، فقدَّسه البعض وكفَّره غيرهم ، لم يبق من مؤلفاته باللغة العربية إلا كتاب « الطواسين » .

● أما الحاكم فهو : منصور بن عبد العزيز بن المعز الفاطمى ، ادعى الألوهية ، وكان غدوراً سفاكاً للدماء ، تثير تصرفاته المتناقضة دهشة بالغة تدفع إلى الظن بأنه كان نهب لوثة عقلية جامحة، ولد سنة ٣٧٥ هـ ، ولقى مصرعه سنة ٤١١ هـ على يد عبدين لابن دواس ، تنفيذاً لمؤامرة دبرتها له أخته ست الملك للخلاص منه ، وما زال أتباعه الدروز حتى اليوم ينتظرون رجعته ، إذ يؤمنون بأنه لم يُقتل ، وإنما اختفى وسيعود مرة ثانية . (البلتاجى) .

والثانى : هو الاتحاد الخاص - وهو قول يعقوبية النصارى [1] وهم أخبث قولاً وهم السودان والقبط ، يقولون : إنَّ اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللَّبن بالماء ، وهو قول مَن وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام .

والثالث : هو الحلول العام - وهو القول الذى ذكره أئمة أهل السُنَّة والحديث عن طائفة من الجهمية [2] المتقدمين ، وهو قول غالب متعبدة الجهمية الذين يقولون : إنَّ اللَّه بذاته فى كل مكان ، ويتمسكون بمتشابه القرآن كقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَفِى الأَرْضِ ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [4] والرد على هؤلاء كثير مشهور فى كلام أئمة السُنَّة وأهل المعرفة وعلماء الحديث .

• كفر القائلين بالاتحاد العام أعظم من كفر النصارى :

الرابع : الاتحاد العام - وهو قول هؤلاء الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات ، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين : من جهة أنَّ أولئك قالوا : إنَّ الرب يتحد بعبده الذى قرَّبه واصطفاه بعد أن لم يكونا متحدين ، وهؤلاء يقولون : ما زال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره ، والثانى : من جهة أنَّ أولئك خصوا ذلك بمن عظَّموه كالمسيح ، وهؤلا جعلوا ذلك سارياً فى الكلاب والخنازير والقذر والأوساخ ، وإذا كان اللَّه تعالى قال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ .. الآية [5] . فكيف بمن قال : إنَّ اللَّه هو الكفار والمنافقون والصبيان والمجانين والأنجاس والأنتان وكل شئ ؟ وإذا كان اللَّه قد رَدَّ قول اليهود والنصارى لما قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ اللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُ ﴾ [6] ، وقال لهم : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ،

---

(١) للتعريف باليعقوبية انظر جـ ١ هامش ص ٢١٩

(٢) للتعريف بالجهمية انظر جـ ١ هامش ص ١١٧ ، و جـ ٣ ص ١٢

(٣) الأنعام : ٣ (٤) الحديد : ٤

(٥) المائدة : ١٧ (٦) المائدة : ١٨

بَلْ أَنتمُ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ ... الآية [1] ، فكيف بمن يزعم أنَّ اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق ليسوا غيره ولا سواه ؟ ولا يُتصور أن يعذب إلا نفسه ؟ وأنَّ كل ناطق فى الكون فهو عين السامع ؟ كما فى قوله ﷺ : « إنَّ اللّه تجاوز لأمتى عما حدَّثت بها أنفسها » ، وأنَّ الناكح عين المنكوح ، حتى قال شاعرهم ..... [2] .

واعلم أنَّ هؤلاء لما كان كفرهم فى قولهم : « إنَّ اللّه هو مخلوقاته كلها » أعظم من كفر النصارى بقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [3] فكان النصارى ضُلاَّل أكثرهم لا يعقلون مذهبهم فى التوحيد إذ هو شئ متخيل لا يعلم ولا يُعقل ، حيث يجعلون الرب جوهراً واحداً ثم يجعلونه ثلاثة جواهر ، ويتأوَّلون ذلك بتعدد الخواص والأشكال التى هى الأقانيم ، والخواص عندهم ليست جواهر ، فيتناقضون مع كفرهم ، كذلك هؤلاء الملاحدة الاتحادية ضُلاَّل أكثرهم لا يعقلون قول رؤوسهم ولا يفقهونه ، وهم فى ذلك كالنصارى ، كلما كان الشيخ أحمق وأجهل ، كان باللّه أعرف ، وعندهم أعظم ، ولهم حظ من عبادة الرب الذى كفروا به كما للنصارى . هذا ما دام أحدهم فى الحجاب ، فإذا ارتفع عن قلبه وعرف أنه هو فهو بالخيار بين أن يسقط عن نفسه الأمر والنهى ويبقى سدى يفعل ما أحب ، وبين أن يقوم بمرتبة الأمر والنهى لحفظ المراتب ، وليقتدى به الناس المحجوبون ، وهم غالب الخلق . ويزعمون أنَّ الأنبياء كانوا كذلك إذ عَدُّوهم كاملين .

* * *

---

(١) المائدة : ١٨

(٢) سقط من الأصل هذا الشعر وقد يُعرف مماسبق من أشعارهم .

(٣) المائدة : ١٧